



Dirasat: Human and Social Sciences

ISSN 1026-3721

Acceptance letter: 25 December 2023

Dear author's **Rawa Naas Muhammad ¹, Hussein Hassan Abdullah ²**

Affiliation:

1,2University of Qadisiyah – Faculty of Arts

Warm Greetings!

It's a great pleasure to inform you that, after the peer review process, your article, "**The aesthetics of silent response in Quranic stories - a story "Zechariah and Mary, peace be upon them" are examples**" has been accepted and considered for publication in **Dirasat: Human and Social Sciences**.

It will be published in future volumes.

Thank you for submitting your work to this journal. We hope you submit another articles in future-

Editor in Chief Prof Amira Masri



ELSEVIER

جماليات الاستجابة الصامتة في القصص القرآنية - قصة

"زكريا، ومريم عليهما السلام" نموذجاً

م.م حسين حسن عبدالله* أ.م.د. رواء نعاس محمد**

* قسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة القادسية

** قسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة القادسية

الخلاصة:

تكتنز لغة القص القرآني أكثر من أنظمة للتعبير عن تواصل، واستجابة شخصياتها، فيزداد على لغة التعبير اللفظي، هناك لغة التعبير غير اللفظي بوصفها استجابة سردية، لتتجلى هذه الاستجابات غير اللفظية بعدة صور ومن هذه الصور البارزة جماليات الاستجابة الصامتة.

لذلك سعى البحث للتعرف على الصمت بوصفه استجابة سردية للتعبير عن جماليات استجابة شخصيات مختارة في القصة القرآنية، ولتكن الاستجابة الصامتة في قصة (زكريا، ومريم عليهما السلام)، لمقاربة هذه الاستجابات واقعية القصة القرآنية. لذلك يوصي البحث بالتحرف على جماليات الاستجابة القرآنية غير اللفظية في قصص قرآنية أخرى، بوصفها أسلوب من أساليب السرد القرآني غير اللفظية، للتعبير عن استجابة شخصياته غير اللفظية، للتنوع في طريقة عرض الاستجابة، لجذب وتشويق متلقيها متابعة سردها للتعاض من مضامينها، وأثباتاً لواقعيتها في العرض. الكلمات المفتاحية: الجمالية، الاستجابة غير اللفظية، الصمت.

المقدمة:

لذلك سعى البحث للتعرف على الصمت

بوصفه استجابة سردية للتعبير عن جماليات استجابة شخصيات مختارة في القصة القرآنية، ولتكن الاستجابة الصامتة في قصة (زكريا، ومريم عليهما السلام)، لمقاربة هذه الاستجابات واقعية القصة القرآنية. وقد سلك البحث لتحقيق أهدافه المنهج

الجمالي، المتكأ على الوصف والتحليل، لرسم خطة له كانت على الشكل التالي: المقدمة: يكون الحديث فيها عن أهمية الموضوع وأسباب اختياره، وخطة البحث. أما التمهيد: يكون الحديث فيه عن الاستجابات غير اللفظية، و جماليات الاستجابة الصامتة، ويشتمل البحث كذلك على مبحثين، بوصفهما تطبيقاً للبحث، المبحث الأول جمالية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه سيد المرسلين محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه المنتجبين، ألهم اهدنا بالقرآن، ووفقنا لفهمه، وتدبره والعمل به.

وبعد...

تكتنز لغة القصص القرآني أكثر من نظام للتعبير عن تواصل، واستجابة شخصياتها، فيزداد على لغة التعبير اللفظية، هناك لغة التعبير غير اللفظية بوصفها استجابة سردية، لتتجلى هذه الاستجابات غير اللفظية بعدة صور ومن هذه الصور البارزة جماليات الاستجابة الصامتة.

الاستجابة الصامتة في قصة زكريا، والمبحث الثاني جمالية الاستجابة الصامتة في قصة مريم (عليهما السلام). وخاتمة البحث: فيها نظرات في جماليات الاستجابة الصامتة في القصة القرآنية.

التمهيد

١. الاستجابات غير اللفظية:

تكتنز لغة القص القرآنية أكثر من أنظمة للتعبير عن معانيها، ذلك بأن اللغة نظام من العلامات يعبر به الإنسان عن أفكاره^(١)، أو ضرب من السلوك كما يرى (بلو مفيلد)^(٢)، فاللغة المنطوقة، ليست الوحيدة للتواصل، فثمة أنظمة وسلوكيات وآليات للتواصل غير لفظية^(٣).

وهذا ما تنبه إليه العلماء قديماً، فالجاحظ يرى أن وسائل الاتصال هي: ((اللفظ والإشارة، والعقد، فالخط، ثم الحال))^(٤)، وذهب بعض المحدثين إلى حاجة اللغة المنطوقة كبيرة إلى اللغة غير المنطوقة لكي تتم عملية التواصل، فإنه ((ينذر أن نجد شخصاً يتكلم بدون أن تصاحب كلماته تغيرات حركية تؤديها أعضاء الجسم، لكننا قد نرى الشخص وهو يعبر بجسمه دون أن ينطق كلمة واحدة، بلا جهد، نستطيع أن نفهم ما تعبر عنه أوضاع وحركات وإشارات جسم الإنسان))^(٥)، وقد قسم العالم الغربي (كنب) الأشكال غير اللفظية في التواصل على ثلاثة أقسام أولها: لغة العلامات، وتتضمن كل أدوات الترميز التي تحل محل الكلمات والأرقام، وعلامات الترقيم، والحركات الجسدية، والقسم الثاني: تمثل في لغة الفعل أي كل الحركات التي تستعمل في شموليتها كالإشارات، وأفعال المشي والشرب، لتلبية

حاجة الإنسان، وثالثاً لغة الأشياء، مثل: الشعارات وموضوعات الفن والأبنية المعمارية وجسد الإنسان وملابسه وأغطيته^(٦). وتتجلى جماليات الاستجابة غير اللغوية في القصص القرآني بصور عدة منها: جماليات الاستجابة الصامتة، وجماليات الاستجابة الحركية، وجماليات الاستجابة اللونية، وجماليات الاستجابة النفسية.

المطلب الأول

جماليات الاستجابة الصامتة:

إذا كانت اللغة المنطوقة، ضرورية، ومهمة للتخاطب والتواصل لحصول الاستجابة فأن جماليات لغة الصمت لا تقل أهمية عنها، بما تحمله من معانٍ تواصلية، توازي الخطاب المنطوق، ((فإنك ترى ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتحدثك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم بياناً إذا لم تبين))^(٧). فلغة الاستجابة الصامتة، تتعدى التعبيرات المجردة إلى تصوير العواطف، وتجسيد الخواطر، وإثارة المشاعر وإحداث الانفعالات، التي تحدثها تلك الصورة الصامتة في مخيلة متلقيها فهي تركز على طاقتها الإيحائية، ذات الجمال الذاتي، المستمد من قيمتها الموجودة فيها.

ومن نافلة القول، فإن للصمت دوراً إرشادياً لا غنى عنه في الخطاب الأدبي الحديث، ولا يمكن إغفال قيمته في عمليتي الفهم والإفهام عبر تلك الومضات والإشارات التواصلية الخفية في النصوص، وما يتمخض عنها من علاقات تراسلية معنوية بين المرسل من ناحية والمتلقي من ناحية أخرى، لتلتي في النهاية بهما معاً في ميدان الاتصال غير اللفظي^(٨).

وقد ميّز الناقد الغربي (هافال) بين تواصلية لغة الصمت، وبين اللغة المنطوقة ف((الصمت تلفظ غائب أو الغياب، وهو عكس النطق والكتابة المحسدين في الصوت))^(٩)، فسمّة الصمت في النصوص السردية تكمن في نرجسيته المثيرة والمنفتحة خلاف الكلام الذي يكون مكشوفاً، فالصمت كلام الذات للذات وبالذات^(١٠).

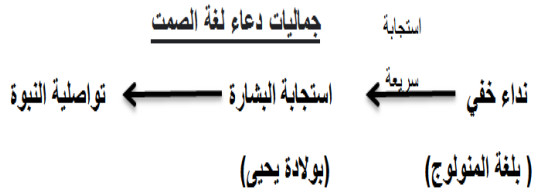
وقد صرح القرآن الكريم في لفظة الصمت في تصويره لاستجابة المشركين في قوله تعالى: ﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرٌ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ الاعراف: ١٩١ - ١٩٤ .

فلغة الصمت كشف بها النص الشريف حال المشركين الذين من كثرة تواصلهم مع معبوداتهم الصماء من الأصنام، أصبح لهم صمت يشبه صمت الأصنام، لا ترح منهم استجابة، وكيف يستجيب لكم من إن دعي إلى الرشاد لا يفهم رشاداً من ضلال^(١١)، فكانت لغة الصمت في النص تفوح لتبوح بالجهل الذي يفضح المشركين.

وقد فعّل السرد لغة الصمت بدلالاتها الإيحائية في القصص القرآني في قصة ولادة يحيى (عليه السلام)، بدعاء من أبيه زكريا (عليه السلام)، الذي تواصل مع ربه تواصلًا صامتاً بالمناجاة (المونولوج)، قال تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ آل عمران : ٣٨ . لتبين بنائية سورة مريم

طبيعة دعاء زكريا (عليه السلام)، ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ مريم : ٣ . ليستجيب له ربه بلغة النداء الإيحائي عن طريق الملائكة (باستجابة البشارة) بولادة غلام يحمل سيمائية تواصلية نبوية، تدل على التجديد في طريقة الخلق، والتسمية قال تعالى ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ مريم: ٧.

وتفصح جماليات الاستباق السردية لسورة آل عمران عن سرعة الاستجابة، ولمكانة يحيى (عليه السلام) المستقبلية قال تعالى: ﴿ فَتَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ آل عمران : ٣٩ ، فمناجاة زكريا (عليه السلام) كانت في المحراب والاستجابة كذلك كانت قبل أن يغادر محرابه (عليه السلام).



لتدهش سرعة استجابة البشارة، وندرته، زكريا (عليه السلام)، لتكون منه استجابة تحقق اليقين ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ مريم: ٨، ليكون الجواب بتفعيل السرد لجمالية الاسترجاع بالربط القصصي إلى بداية الخلق، خلق آدم (عليه السلام)، ﴿ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ مريم: ٩ . وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ مريم: ٦٧.

مذكراً أيّاه، بالذي خلق آدم (عليه السلام)، من غير أب ولا أم، هين عليه خلق يحيى من أب وأم، وإن كانا عاجزين، وبدلالة الجمالية البنائية لما استهلّت به سورة آل عمران، بإشارتها لطبيعة خلق الإنسان قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ آل عمران: ٦٠.

فالسرّد حينما يخبرنا بطريقة إنجاب يحيى غير الطبيعية، يسعى إلى إغماض حدث الإنجاب، والغموض مطلب فني في الأعمال الإبداعية^(١٢)، فيإغماض السرّد لكيفية الإنجاب بطريقة غير طبيعية، يثير لدى المتلقي الدهشة، التي تحفزه لتخيل حدث الإنجاب، فالسرّد لم يخبر المتلقي الداخلي بكيفية حصول الحدث ولا المتلقي الخارجي عنده علم، مما يجعل لغة الحدث لغة مفتوحة تفسح المجال للمتلقي بقراءة الحدث وفق الزاوية التي يراها منه. يزداد على ذلك أن في فاعلية غموض النص تواصلية ((تفضي إلى شد المتلقي إلى النص))^(١٣)، ليتبعه ليصل إلى معرفة قدرة الله سبحانه وتعالى على جمالية الخلق.

ولتخبرنا كذلك بنائية السرّد في قصة إبراهيم (عليه السلام)، (بالربط الحدثي)، باستجابة عجابية مشابحة لزوجته إبراهيم (عليه السلام) في حدث بشارة الإنجاب غير الطبيعي، قال تعالى ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ هود: ٧٢، ليوظف السرّد التواصل بالمشهد العجائبي، الذي صمت الناس أمامه من غير تفسير للغته العجائبية، لتجسده بالمعجز الإلهي، الذي يحدثه الله سبحانه على يد أنبيائه، ليكون أحد السبل الإقناعية التي يزلزل بها كيان، من بعث اليهم، ويشككهم في

مسلماتهم البالية، مُشكلاً لديهم منطقاً جديداً تقاس بإزائه صحة الأمور^(١٤).

فالسرّد في القصص القرآني، يعتمد لعرض القصة من الخلف، وهو ما يصطلح عليه جيزار جنيت (التبئير بدرجة الصفر)، حيث السارد يعلم أكثر من الشخصية فهو كلي العلم، عالم بخفايا الأمور ليخبرنا بها عن أشياء فوق الطبيعة^(١٥). فوجهة نظر عرض الحدث فيه تعتمد على الراوي، الذي تتحدد رؤيته إلى العالم الذي يرويه بأشخاصه وأحداثه، وعلى الكيفية التي تبلغ بها أحداث القصة إلى المتلقي^(١٦)، وهذا النوع من الخطاب السردّي هو الذي يسمح بالخطابات التواصلية العجائبية، فزكريا لم يستوعب التواصل مع جمالية بشارة السرّد العجائبية العالية، فأراد أن تكون له آية يحاجج بها الناس ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ آل عمران: ٤١.

وطلب زكريا ((ليعيش في نطاق الشكر على بشارة نعمة الولد فهو لم يطلبها لأنه يشك في قدرة الله سبحانه))^(١٧)؛ لتنتقل تواصلية زكريا مع الناس من تواصل النطق إلى تواصل الصمت المتكئ على لغة الصمت، ولغة الإشارة.

تواصلية استجابة الصمت

← لغة الصمت ← لغة الإشارة

وقد تواصل زكريا مع ربه بالاعتكاف المتكئ على لغة الذكر الكثير والتسبيح المستمر مدة الاعتكاف. وبعد أن حصن السرّد زكريا (عليه السلام)، بلغة الصمت، ولغة الاعتكاف، أصبح مستعداً لتبليغ

قومه بالحقيقة ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ مريم : ١٠ - ١١ ، ليكون لذكرها أسلوبه الخاص في التبليغ، بتواصلية لغة الإيجاء العالية، القريبة من لغة الصمت - المتكئة على لغة التسبيح المستمر.

جمالية بنائية تواصلية الصمت

استجابة الصمت ← استجابة الاعتكاف ← استجابة الإبداء

ليكون للتواصلية الصامتة أفضليتها في السرد القصصي القرآني، للتعبير عن بعض المشاهد ذات الخصوصية العالية، التي تميل للرمز، والإشارة فيتعذر التعبير عنها بلغة القول، فتعدد المعنى في لغة الرمز جمالية من جماليات النص التي يتلذذ القارئ باكتشافها، ففي الصورة الرمزية ((استفادة ذهنية لإحساس أنتجه إدراك فيزيقي))^(١٨)، يتوسع به المد السردى.

فقد وظف السرد القرآني لغة الصمت في قصة مريم (عليها السلام)، للتعبير عن حدث إنجاب عيسى (عليه السلام) غير الطبيعي المشابه لحدث إنجاب يحيى (عليه السلام) غير الطبيعي، فالسرد في القصة القرآنية يربط الشخصية القصصية بوظيفتها، لتتحول إلى رمز تحاول التعبير عن مفاهيم أو أفكار، أو رؤى بالاستعانة بالإشارة الواردة فيه^(١٩).

فبنائية تكرار حدث الإنجاب غير الطبيعي، في أكثر من قصة يمثل الواقعية السردية للقصة القرآنية، ففجائية لم تحرق السرد كلياً، وإنما أحدث تفاعلاً بين البعد الوظيفي للقصة القرآنية، والحدث العجائبي في فضاء السرد الحديث^(٢٠)

فلمريم (عليها السلام) استجابة صامتة في قبال استجابة قومها الكلامية، قال تعالى: ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ مريم : ٢٨، وهي استجابة ندائية استرجاعية تذكيرية بنسب مريم، لتكون لمريم (عليها السلام) استجابة صامتة، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ مريم : ٢٦. فعل السرد لغة الصمت من مريم، لتعبر عن مشهد الإنجاب، في قبال لغة قومها الكلامية، ((فالصمت يكون أحياناً مثخناً بالمعاني بحيث أنه يحطم الكلام))^(٢١)، فله من الدلالات ما لا يعرفها إلا الصامت ذاته^(٢٢).

لتلجأ مريم (عليها السلام) إلى لغة الإشارة والرمز، للتعبير عن فعل الإنجاب غير الطبيعي، ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ مريم : ٢٩، وبتفعيل لغة الإشارة من مريم (عليها السلام)، أنطق الله سبحانه وتعالى عيسى (عليه السلام) بلغة الكلام، ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ مريم : ٣٠.

ليكسر السرد بكلام عيسى (عليه السلام) عتبة الصمت، ويدهش قومه، ليظهر عليهم صمت الحيرة وبذلك فعل السرد لغة الصمت (بالإشارة) من مريم (عليها السلام)، لتحفيز لغة الكلام من عيسى (عليه السلام)، لتكون له تواصلية النبوة، التي هي الغرض الأساس من قصة مريم (عليها السلام).

جماليات لغة الإشارة

لغة الصمت (بالإشارة) ← لغة الكلام ← تواصلية
 ← مريم (عليها السلام) ← عيسى (عليه السلام)

أحدث السرد مفارقة في الحوار بين من كان يجب أن يتكلم مريم (عليها السلام)، لتصدر منها (الإشارة) وبين من كان يجب أن تصدر منه الإشارة (الصبي في المهد) ((المفارقة هي إدراكنا لحقيقة أن العالم في ماهيته متناقض ظاهرياً وأن وجهة النظر الملتبسة هي وحدها التي تستطيع أن تلتقط كليته المتناقضة))^(٢٣)، ليكون لهذه المفارقة سبباً في إدهاش قوم مريم (عليها السلام)، لتكون منهم استجابة الاختلاف في تأويلهم لغة المفارقة ((المفارقة تقدم بهذا التناقض الظاهري آلية تعين المبدع على الانفلات من دائرة المباشرة والبساطة والدخول في آفاق الضبابية الجمالية والثقافية البعيدة))^(٢٤). قال تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ مريم: ٣٧.

ليستجيب قوم منهم للغة الصمت والإشارة من مريم ويصدقها، ويكفر بها من لم يفهم لغة الإشارة والصمت العالية، لتكون له استجابة الويل في مشهد اليوم العظيم، فتواصلية المفارقة تعمل على الشيء وضده بحيث إنتاج الدلالة لوجه واحد ساعة انتاجها الآخر^(٢٥).

جمالية استجابة المفارقة الصامتة

المتلقي الداخلي ← مريم (عليها السلام) ← استجابة الصمت ← بلغة بالإشارة
 ← عيسى (عليه السلام) ← استجابة كلامية ← بلغة المفارقة
 ← القوم ← استجابة الإدهاش ← بلغة الاختلاف
 المتلقي الخارجي ← استجابة التسليم بقدرة الله ← ونبوة عيسى (عليه السلام)

نلاحظ على جماليات العرض في السرد القصصي القرآني، أنه عبر بأكثر من لغة للتعبير عن أفعال شخصياته، بما يناسب الأحداث، فلجأ إلى لغات غير لغوية كلغة الصمت والرمز، والإشارة والإيماء، المناسب لمقام الأحداث. ففعلها في مشهد استجابة البشارة بالغلام لزكريا (عليه السلام)، وفي مشهد استجابة البشارة لمريم بعيسى (عليه السلام)، فالجانب الإبداعي في القصة القرآنية لا يركز على الجانب الشكلي اللغوي فحسب، وإنما على الجانب المضموني كذلك، عبر تجسيد المعجز الإلهي، الذي يدخل في خطاب العجائبي، بالنسبة إلى العقل الإنساني المحدد بما اعتاد عليه^(٢٦).

بيد أن لبنائية اللغة الصامتة العالية وظيفية الربط بين قصص القرآن الكريم، لتفسير بعضها ببعض، ولتكن إحداها استهلالاً، وتمهيداً للقصة الأخرى، فلهذا الصمت من زكريا المعبر بها عن إنجاب يحيى غير طبيعي من أبوين عاجزين هو تمهيداً واستهلالاً لحدث إنجاب عيسى (عليه السلام) من غير أب، المعبر عنه بلغة الإشارة من مريم، وكلا الحدثين هو إشارة ورمز لقدرة الله على خلق آدم (عليه السلام) من غير أب، ولا أم، ليكون هين على البشرية، استيعاب قدرة الله سبحانه وتعالى، على إحياء الموتى بعد إنتهاء قصة الخلق في

الحياة الدنيا، ليعادوا مرة أخرى في قصة الحياة الآخرة وهو أهون على الله (عز وجل)؛ لأن كل الناس هم من أم وأب.

جماليات استجابة قصة الخلق

خلق آدم (عليه السلام) ← خلق يحيى ← خلق عيسى ← عودة الخلق
(من غير أب ولا أم) (من أب وأم عجوزين) (من غير أب) (من أب وأم

والجدير بالذكر أن جمال لغة السرد القرآني، قد فرّق بين لفظي (الصمت، والسكت)، لتفريق لغة العرب بينهما، فالصمت يستعمل في الامتناع عن الكلام لمدة طويلة^(٢٧)، والسكت، الامتناع عن الكلام مع القدرة، على الكلام القليل^(٢٨)، وهو ما يناسب حدث الغضب من موسى (عليه السلام) القليل، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبَ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُسَخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ الأعراف: ١٥٤.

فعندما وجد موسى (عليه السلام) قومه في غيابه قد عبدوا العجل، كانت له استجابة غاضبة، فقد فاجأه، وأدهشه عملهم، فتعطل لسانه ولم يتكلم، فسكت موسى (عليه السلام)، وكأن الغضب هو الذي يفعل فألقى الألواح، وأمسك بلحية هارون، ولما سكت الغضب، عاد العمل لموسى (عليه السلام) ليأخذ الألواح، ليواصل هدايته لقومه، وثم استغفر، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ الأعراف: ١٥.

فاستغفر موسى (عليه السلام) ربه (عز وجل) على السكت القليل، الذي توقف فيه عن هدايته لقومه، موظف السرد ما في الصمت من قيمة تطهيرية،

تعمل على الانتظار، للاستعادة الكاملة لقيمة الكلام^(٢٩).

أما في سياق الصمت السليبي، فقد جاء ما يوحي به للتعبير عن استجابة السلوكية للكافرين، قال تعالى ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ الانعام: ٤٤.

فالإبلاس صمت غير ايجابي، يلزمه الحزن والندم، لكونه ناتج عن إنقطاع الحجة^(٣٠)، بهذا المعنى يشابه الإبلاس استجابة الكافرين الصامتة ليعبر عن دهشتهم بمفاجأة العذاب لهم، بوصفها استجابة غير لغوية، تعبر عن حالات عاطفية وسلوكية، إن كانت ايجابية أو سلبية، حسب السياقات القصصية، لإدامة عنصر السرد بتفعيل المعاني المختزنة في فعل الصمت، أثر السرد لغة الصمت بالإبلاس، ليوهم بها حال الكافرين، ليعلن بموقفه هذا احتجاجاً على الكافرين، الذين نسوا ذكر الله المتفضل عليهم بكل النعم.

وفي سياقات قصصية أخرى وظف السرد، جمالية التدرج في صفة الصمت، للتعبير عن سلوكيات شخصياته، وذلك في قصة يونس (عليه السلام) قال تعالى ﴿إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾

القلم: ٤٨. فمعنى الكظم هو حبس النفس، ودرجة عالية من درجات الصمت، فيذكر عند المبالغة في السكوت والحزن^(٣١)، فيونس (عليه السلام) غضب على قومه عندما وجدهم لا يستجيبون للهداية، فكظم غيظه عليهم، وتركهم ولم يدعوا عليهم، فالصمت أحياناً

يحتوي من المعاني العميقة التي لا يمكن التعبير عنها بالكلام^(٣٢)،

وتكمن إيجابية كظم الغيظ من يونس، بدلالة بنائية سورة آل عمران التي جاء فيها كظم الغيظ بوصفه صفة وسم بها السرد يونس (عليه السلام)، قال تعالى ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالصَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ آل عمران : ١٣٤ .

فقد جاء كظم الغيظ ضمن مجموعة الصفات التي وصف بها المؤمنين، لينالوا بها محبة الله سبحانه وتعالى، لكونه من المحسنين. فيدرك الصمت في مكان ما ليس تتعلق بالصوت وغيابه، وإنما بالمعنى، وبالتصادي بين الذات والعالم التي تستدعي مسألة التندر^(٣٣) فالصمت يحتاج مجاهدة شهوة لغة الكلام. فكظم الغيظ من يونس (عليه السلام) بوصفه عنصراً تواصلياً له من الدلالة العالية، التي كان بها قسيم المنادة، بلغة المناجاة التي باح بها هم لربه (عز وجل).

والجميل في السرد القرآني أنه لمح في سياقات قصصية في عصر الرسول الأكرم (ﷺ) بوجوب التحلي بتواصلية الصمت في بعض الأمور، قال تعالى: ﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّلَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّلَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ المائدة: ١٠١-١٠٢ .

يبين السرد أهمية الالتزام بتواصلية الصمت عن السؤال في بعض الأمور التي يصمت فيها القرآن،

لأنه إن نطق بها وظهرت لهم ربما ساءت عليهم سماعتها، ليلمح السرد بخطورة مصير من لم يلتزم بالصمت، رابطاً إياهم بمصير الأقوام الذين كان تكليفهم الصمت، فخرقوه بالسؤال، فاصبحوا به كافرين.

وربما أشار السرد إلى بنائية قصة قوم موسى (عليه السلام) الذين أساءت لهم كثرة سؤالهم عن صفات البقرة، إذ أمروا أن يذبحوها بدون سؤال، فشككوا بسؤالهم بنبيهم، فتشدد عليهم في صفاتها، وفي ذلك تأديب للمؤمنين في جمالية السؤال والجواب.

فكان للغة الصمت حضورها الواسع، الذي يتناسق مع واقعية القصة القرآنية، بوصف الصمت عملية تواصلية تعبر عن سلوكيات عاطفية لاستجابات وردود أفعال إرادية وغير إرادية للشخصيات القصصية، إن كان الصمت فيها إيجابياً أو غير إيجابي، مفرق السرد بين درجات ومستويات الصمت القصيرة، والطويلة، بحسب سياقاته القصصية الوارد فيها، يزداد على ذلك تفعيل السرد القرآني لغة الصمت بوصفه تقانة جمالية، وبنائية داخلية للربط بين أجزاء القصة الواحدة، وخارجياً، لربط القصة بالقصص الأخرى، وكذلك وظف السرد القرآني لغة الصمت بوصفها تواصلية غير منطوقة، لإدامة عنصر القص، بما في الصمت من دلالات تشويقية، وإدهاشية، تجذب المتلقي، لمتابعة القصة، والربط بين أجزائها، للوصول إلى العظة والعبرة التي بنيت لها.

المصادر:

١. لإشارة الجسمية، كريم زكي حسام الدين، دار غريب، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٢.

٢. بصائر ذوي التميز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي، تح: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٢.
٣. بلاغة الصمت في شعر ميخائيل نعيمة، دكتور نور الدين زين العابدين، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية.
٤. البيان والتبيين، الجاحظ، تح: عبد السلام هرون، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٦٠.
٥. تحليل السرد الروائي-الزمن-السرد-التبئير، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط٣، ١٩٧٧.
٦. تشكيلات الشعرية الروائية- شعرية المفارقة، محمد الضبع، مجلة فصول، ٢٠٠٣.
٧. تفسير الشعراوي- الخواطر، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم.
٨. التمثيل والمحاضرة، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، تح: عبد الفتاح محمد الحلو، دار العربية للكتاب، ط٢، ١٩٨١.
٩. جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، تح: أحمد محمود شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٠.
١٠. جماليات الصمت في المخفي والمكبوت، إبراهيم محمود، مركز الإنماء الحضاري، ط١، ٢٠٠٢.
١١. دلائل الإعجاز، الجرجاني، تعليق محمود شاكر، دار المدني، جدة، ١٩٧٢.
١٢. رد المختار على الدر المختار سرح تنوير الأبصار، محمد أمين ابن عابدين، تح: عادل عبد الموجود، وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط٢، ٢٠٠٣.
١٣. الرمز في الخطاب الأدبي، حسن كريم عاتي، الناشر الرسوم، بغداد، ط١، ٢٠١٥.
١٤. شعرية الرواية- الفانتاستيكية، شعيب حلفي، منشورات الاختلاف، ط١، ٢٠٠٩.
١٥. الصمت لغة المعنى والوجود، دافيد لوبروط، تر: فريد الزاهي، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ٢٠١٩.
١٦. الصورة الفنية، نورمان زيد مان، تر: جابر عصفور، مجلة الأديب المعاصر، العدد ١٦، ١٩٧٦.
١٧. علم الاتصال المعاصر، عبدالله الطويقي، مكتبة العبيكان، ط١، ١٩٩٧.
١٨. قراءة معاصرة في القصص القرآني- في ضوء سورة الكهف، عبد الباسط مرashedة، مجلة الأكاديمي العربي في الدنمارك، العدد العاشر، ٢٠١١.
١٩. قول في علم الدلالة، دي سوسير، تر: أحمد نعيم كراعين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٢.
٢٠. الكليات، أبو البقاء الكفوي، تح: دكتور عدنان درويش و محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، ١٩٩٨.
٢١. لغة بدون كلمات، محي الدين اللباد، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٩٧.
٢٢. المفارقة في النص الروائي (نجيب محفوظ نموذجا)، حسن حماد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة- مصر، ١٩٩٩.
٢٣. المفارقة في شعر أمل دنقل، سامح الرواشدة، مجلة دراسات، مج ٢٢، العدد ٦.

٢٤. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني،
تح: صفوان عدنان الداودي، دار القلم،
بيروت، ط ١، ١٩٩٢.

٢٥. المقموع والمسكوت عنه في السرد العربي، ثامر
فاضل، دار المدى، بيروت، ط ١، ٢٠٠٤.

الهوامش

^١ - ينظر: قول في علم الدلالة، دي سوسير، ٤٠.
^٢ - ينظر: اللغة، بلومفيلد، ٣٢.
^٣ - ينظر: علم الاتصال المعاصر، عبد الله
الطويقي، ٤٧.

^٤ - البيان والتبيين، الجاحظ، ٧٦/١.
^٥ - لغة بدون كلمات، محي الدين اللباد، ١٧.
^٦ - نقلاً عن بحث، أنظمة دلالية غير لفظية ودورها
في تشكيل نظام لغوي للتواصل في القرآن الكريم،
د. نبال نبيل نزال، ٣٢٧.

^٧ - دلائل الاعجاز، الجرجاني، ١٤٦.
^٨ - ينظر: بلاغة الصمت في شعر ميخائيل نعيمة،
دكتور نور الدين زين العابدين، ٣.
^٩ - مدخل إلى الصمت في النص السردي، محي
الدين حمدي، ١٠.

^{١٠} - ينظر: جماليات الصمت في المخفي والمكبوت،
ابراهيم محمود، ١٦.

^{١١} - ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن
جرير بن كثير الطبري، ٣٢.

^{١٢} - ينظر: قراءة معاصرة في النص القرآني - في ضوء
سورة الكهف، عبد الباسط مرشدة وعبد الرحيم
مرشدة، ٨٠.

^{١٣} - المصدر السابق، ٨٠.

^{١٤} - ينظر: تجليات السرد في الخطاب العجائي،
محمد عشتار داود، ٢٨٥.

^{١٥} - ينظر: شعرية الرواية - الفانتاستيكية، شعيب
حليفي، ١٦٠.

^{١٦} - ينظر: تحليل السرد الروائي - الزمن - السرد -
التبثير، سعيد يقطين، ٥٠.

^{١٧} - تفسير الشعراوي - الخواطر، محمد متولي
الشعراوي، ٣ / ١٤٤١.

^{١٨} - الصورة الفنية، نورمان فريد مان، ٣٢.

^{١٩} - ينظر: الرمز في الخطاب الادبي، حسن كريم
حاني، ١٨.

^{٢٠} - ينظر: المقموع والمسكوت عنه في السرد العربي،
فاضل ثامر، ٨٦.

^{٢١} - الصمت لغة المعنى والوجود، ٢٣٣.

^{٢٢} - المصدر نفسه، ٢٣٣.

^{٢٣} - المفارقة في النص الروائي، حسن حماد، ٣٢.

^{٢٤} - المفارقة في شعر أمل دنقل، سامح الرواسدة،
٣٧.

^{٢٥} - ينظر: تشكيلات الشعرية الروائية - شعرية
المفارقة، محمد الضبع، ٣١٢.

^{٢٦} - ينظر: تجليات السرد في الخطاب العجائي،
محمد عشتار، ٢٨٥.

^{٢٧} - ينظر: رد المختار على الدر المختار - شرح
تنوير الأبصار، محمد أمين ابن عابدين، ٤٤١.

^{٢٨} - ينظر: الكليات، ابو البقاء الكفوي، ٥٠٩.

^{٢٩} - ينظر: الصمت لغة المعنى، ١٤.

^{٣٠} - ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري،
١١ / ٣٦٠.

^{٣١} - ينظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب

الاصفهاني، ٧١٢، وبصائر ذوي التميز في

لطائف الكتاب العزيز، الفيروز ابادي، ٣٥٧.

^{٣٢} - ينظر: الصمت لغة المعنى والوجود، ١٩٥.

^{٣٣} - ينظر: المصدر نفسه، ١٩٥.